الفصل الأول

ساحات الأماكن ودنيا الأشخاص

عزبة الفرخ والشيخ إبراهيم

هذه قريتى التى وُلدت وعشت فيها أيام عمرى كله، ولم أشأ أن أتركها وأسكن فى القاهرة لشىء ما يربطنى بها، لعله الأمان الذى أحس به فيها والدفء الذى يلتف حول مشاعرى من الفيض الزاخر الذى يحيطنى به الناس وأبادلهم دفئًا بدفء، أو لعلها روح المكان التى تأتلف مع روح الإنسان منا فيحب كل منهما الآخر ولا يطيق البعاد عنه ولا مفارقته.

وهذه القرية سميت فى ميلادها الأول باسم عائلة يقال إنها أول من سكنها فى بداية القرن السابق، وكان اسم هذه العائلة «عائلة الفرخ» فسميت فى بدايتها عزبة الفرخ، وكثر الناس فى هذه المنطقة وحولها وأصبحت نواة قرية صغيرة. وكانت إحدى عائلات هذه العزبة «عائلة عطيوى» وهذه العائلة رأيتها بعد أن دلت عليها الأيام وبعد أن كانت قائدة ورائدة وثرية ومُهابة أصبحت خلاف ذلك.

من عائلة عطيوى كان عمدة عزبة الفرخ، الذى رأى فى المنام

أن «إبراهيم بن أدهم» الولى المعروف يأمره أن يبنى له مقامًا فى مكان حدده له فقام من نومه فبنى هذا المقام لإبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ الذى لم يكن من أهل هذه البلدة ولا سمع بها فى حياته. ولكن لعل هذا يعبر عن حب الناس فى مصر للدين والولاء له ولأوليائه والعمل على أن يكون له وجود ظاهر فى حياتهم، وبخاصة إذا كان من سيقام له الضريح بهذه السيرة الطيبة التى تزخر بالكرامات والبركات المسطورة فى كتب الصوفية، وخاصة أيضًا إذا كان هؤلاء الناس ليس لديهم إلا فطرة سليمة وعاطفة تأخذهم حيث ترتاح القلوب مع واحد من هؤلاء الذين اصطلحوا مع الله ومع أنفسهم ومع الناس، وكان بطل المنام الذى جاء لعطيوى عمدة العزبة، كذلك حيث كان له ذكر وتاريخ فى كتب الصوفية، فقد ذُكر إبراهيم بن أدهم فى كتاب «حلية الأولياء» وذُكر فى كتب أهل الحديث أنه أحد رواة الأحاديث، فقد ذكره البخارى فى التاريخ الكبير.

وسميت العزبة التى كانت تُعرف بعزبة الفرخ بقرية كفر الشيخ إبراهيم، نسبة لهذا العارف الذى لم يدفن فى هذا المكان ولكن تعطر المكان باسمه ونسبت القرية إليه، وكثيرًا ما كنت أفتخر بأننا ننتسب لهذا القطب الكبير والعالم الورع والصوفى المتبتل. وكان يقوم على المقام خادم من أهل القرية، يقوم بتنظيفه وفتحه لزواره القلائل الذين عادةً ما يكونون من أهل البلاد المجاورة، ولا أذكر أننى دخلت إلى هذا المقام إلا مرات قليلة. وكان المقام يلبس ثوبًا أخضر فاقع اللون وعلى رأس القبر عمامة بيضاء، وكان بيت أبى أمام هذا المقام الذى كان قليل الزوار، لكن مع ذلك كان

محل التقدير والتبجيل من كل الناس، وكانت بعض النساء تذهبن إلى هذا المقام وتطعمن فيه وتعطين لخادمه بعض الأموال.

إلا أن هذه الصورة كانت قليلة الحدوث ولم أرها كثيرًا، ربما لتأكيد الخطباء فى المساجد ـ ممن لدعوتهم الثقة عند الناس ـ أن هذا جرح للتوحيد الخالص ونيل من العقيدة السليمة، وأن النذر لا يكون إلا لله حتى وإن كان هذا المقام قبر لأحد الأولياء أو لاسمه فى الحقيقة، دون التكفير والإشراك الذى حمله إلينا السلفيون من بلاد النفط بعد ذلك. ولذلك كانت هذه الصور للتبرك والتى لا أراها كثيرًا هى التى جعلتنى لا أقبل الممارسات التى تخرج عن التعبير عن الحب للولى إلى شىء آخر لا أقبله، كمن يُقبل الأعتاب أو يطوف حول القبر، ولكن أقف أمام المقام احترامًا وتبجيلًا ورهبة لتاريخ هذا الولى، وأدعو الله ربى ورب هذا الولى، وكذلك كنت أفعل دائمًا بعد أن أصبحت مذيعًا أنقل الصلاة على الهواء من مساجد آل البيت كالإمام الحسين والسيدة زينب ـ رضى الله عنهما ـ والإمام الشافعى وغيرهم كثير فى ربوع مصر على امتدادها التى تطهرت تربتها بالصحابة والتابعين والأولياء الصالحين. والمسجد الذى أحس فيه دائمًا بغاية الأمان النفسى والاطمئنان القلبى والهدوء الروحى هو مسجد السيدة نفيسة ـ رضى الله عنها ـ لا أدرى لماذا؟ لعلها كانت تعطف على المساكين من أمثالى، وها هى سيرتها كلما دخلت المسجد أشعر معها وفيها وبها بهذا الشعور..

مسجد للمقام

وكان بجانب المقام مسجد سُمى باسم مسجد سيدى إبراهيم بن أدهم، وكان مبنيًا من الطوب اللبن وكان له منبر يصعد إليه من خلف

المحراب، والمنبر مصنوع من أعمدة خشب يصل إليها الخطيب بيده مطمئن اليد، وكان المسجد يتسع لأهل القرية فى نهاية الستينيات حيث طفولتى الأولى. وكان على يمين الداخل إلى المسجد مراحيض ثلاثة بشكلها القديم، ويأخذ من يدخل إليها بعض الماء فى إناء صغير وكانت صنابير الماء مصفوفة على امتداد يمين الداخل للوضوء.

وكان المسجد ينتشر فيه نور النهار حتى يلف الليل ظلامه على نوافذه وأبوابه، فيأتى خادم المسجد الشيخ «بدر الكرمانى» ويرهب ظلام الليل بأشعة تنبعث من مصباح وقوده بلتر من الكيروسين، فما أن يشعل عود الثقاب فى شريط المصباح المعتق بالوقود حتى يملأ النور كثيرًا من جنبات المسجد ويبقى البعيد عن المصباح يلهث وراء النور الذى جاء عنده خافتًا يشكو ضعفه إليه. وكان فرش هذا المسجد من الحصير الذى كان يطبع صورة أعواده المنتظمة على جبهات المصلين لكى يشهد لهم عند الله بالصلاة والتقى.

وكنت أقف وراء الرجال المصلين فى الصف الثانى دائمًا، وكان المؤذن الشيخ «بدر الكرمانى» يصعد على ظهر المسجد ليرفع الأذان للصلاة بصوته الخاشع الجميل المزين بتجويد الأداء وتحسينه وتطويل أواخر الكلمات، وكان يأتى قبل صلاة الفجر ويرفع صوته بالدعاء والابتهالات وبمجموعة من الأشعار التى كانت تخرق الصمت بالمعانى الصوفية الرائعة التى كانت أمى عندما تسمعها تنهمر دموعها، ودائمًا ما كانت تذكر التواشيح كما كانت تسميها. وكان هذا الرجل الطيب الذى كانت طيبته هذه تضيق وقد تصل للغضب عندما كنا نفتح صنابير المياه أو نحدث جلبة فى المسجد أو يجرى بعضنا وراء بعض ـ كما يفعل

الأطفال ـ وكان أحيانًا يقف إمامًا وكان يبهرنى بصوته الأجش قليلًا والذى يمكن أن تشبهه بالقارئ الكبير «محمود عبد الحكم» وكان يتلو فى الصلاة بسورة البينة بطلاقة، وسبب الانبهار أن هذه السورة بالذات قد أخذت منى وقتًا طويلًا لكى أحفظها فكنت أرددها معه كأننى أختبر نفسى.

وخطيب المسجد الذى عاصرته وأنا فى سنوات عمرى الأولى هو الشيخ «محمد القاضى» واسمه الحقيقى محمد حسنين، وسُمى بالقاضى لأنه كان مأذون القرية فى وقت كان لقب القاضى يطلق على المأذون، لذا عُرف فى عرف الناس بمحمد القاضى. وكان يخطب الجمعة وهو يمسك بكتاب يقرأ منه الخطبة التى لم أكن فى سن تمكننى من الحكم عليها. وبعد الشيخ محمد القاضى جاء على منبر هذا المسجد فرسان دار المعلمين الذين حملوا لواء الدعوة فى أهل القرية بعد ذلك، وكان واحد منهم هو «حسنين ابن الشيخ محمد القاضى» الذى حمل هو وزملاؤه راية التعليم والدعوة معًا فى هذه القرية الصغيرة وكان لهم معى دور سيأتى فى ثنايا الحكايات حيث الحروف والكلمات والمعانى والمبانى والتربية والاخلاق.

وكان لى فى هذا المسجد مشاهد لاتمحى من ذاكرتى، ولعلها هى التى علمتنى بعد ذلك ورسخت فى يقين نفسى احترام المسجد، حيث كان أبى يصحبنى منذ سنوات عمرى الأولى، ورغم أننى كنت دائم التحرك والتنقل وكنت أحب اللعب إلا أننى فى المسجد ـ خاصة عند الصلاة ـ كنت أهدأ تمامًا، وقد يكون ذلك راجعًا إلى موقف الناس فى الصلاة وخشوعهم ووقوفهم بانحناءة رؤوسهم الخاشعة، وقد يكون لمعاملة الناس التى كان يملؤها الحب. وكنت أخاف عندما أدخل

المسجد بين المغرب والعشاء فأجد نفسى وحيدًا، فأخرج على بابه حتى يأتى أحد الداخلين إليه لكى أستأنس به. والصورة الأخرى التى طبعت فى ذاكرتى صورة الشيخ «عبد الرحمن يوسف» الذى كان يمسك بالمصحف ويقرأ فيه بالساعات الطويلة خوفًا من أن يفلت منه القرآن، وانتقل بهذه الصورة إلى المسجد الجديد وظل كذلك لا يفارق المصحف يده حتى تحس أحيانًا أنه منفصل عن العالم مع محبوبه، وإن كان لذلك أثره فى مجانبته للناس ومجانبة الناس له، حيث يخلو بمحبوبه ـ القرآن الكريم ـ وظل هذا المسجد قبلتنا للصلاة على مدار عشر سنوات من عمرى وترك فى نفسى أثرًا لا يُمحى، حيث القرب منه أمان والدخول إليه تعليم وتربية والصلاة فيه عبادة ورياضة روحية ورقى بالمشاعر التى كانت تتشكل فى هذه الفترة.

طبع هذا المسجد فى قلبى أول ركعة ركعتها لله فيه، وفُتحت لى فى ساحته أبواب رحمة ربى، وكان لى واحة للسكينة التى كنت أحس ببردها فى أنحاء روحى. هذا المسجد يذكرنى بالأساس الذى يوضع للبيوت العملاقة لكى تثبت مدى الحياة، هكذا كان لهذا المسجد البسيط المبنى العظيم المعنى فى بداية مشوار العمر. ثم بدأ بناء مسجد جديد حمل نفس الاسم وهو مسجد سيدى إبراهيم بن أدهم وتحول مسجدنا القديم إلى حضانة للأطفال بعد أن فتح المسجد الجديد أبوابه للمصلين.

ساحة شجرة الجميز

يقع بيت أبى على ناصية شارع طويل ينتهى بحارة ضيقة، والخارج من هذا الشارع يكون على يمينه المسجد وبجانبه المقام وعلى يساره بيتنا ثم يخرج إلى ميدان واسع، هذا الميدان كان أوسع الميادين فى القرية وكان

ملتقى لكل من يأتى من اليمين أو اليسار حيث يبدأ منه الشارع يمينًا وينتهى إليه يسارًا. ويُعرف شارعنا بشارع داير الناحية أى الذى يدور من أول البلد إلى آخرها، فهو كالحزام الذى يلف القرية من بدايتها إلى نهايتها ثم ينتهى إلى هذا الميدان، وفى جانبه تقف شجرة الجميز الكبيرة بساقها العريضة التى كان لحاؤها يبدو كثياب مقطعة من تجريح الصغار له. ورقها كأنها شماس خضراء تمنع لهيب الشمس أن يحرق الرؤوس، وتبدو كأنها أم يأتى أولادها لكى ينعموا فى نهارهم بالأمان من لفحة القيظ، وبالليل بمؤانسة ساقها التى تستقبل الضيوف كل ليلة لكى يحكوا تحتها وحولها حكايات المساء.

وكان هذا الميدان يشمل الجميع، فتجد فيه نهارًا البائعات من النساء اللاتى ضربن المثل فى الاعتماد على النفس حتى يعشن ويعيش أولادهن فى هذا المجتمع الفقير على اختلاف صورهن، وكن يضعن الطماطم والخضار فى الميدان ويطلقن أصواتهن وينادين المشترين بالاسم، فهذه تعرض بصوتها ما معها من فواكه وخضر، وتأتى أخرى وتأخذ جنبًا آخر وتضع ما معها فى مشنتين وتجلس بلا صوت ويأتيها زبائنها يشترون، وتبدأ مع عملية الشراء حكايات النساء عن الأزواج والأولاد.

ووسط الميدان يتبارى اللاعبون بالكرة من الأطفال الذين كنت واحدًا منهم، نركل الكرة ونجرى وراءها وننطحها برؤوسنا ونحرز الأهداف، وبجانبنا يسير الناس فى أعمالهم جهة اليمين وجهة اليسار، فهذا يمشى على قدميه وهذا يعتلى حماره وهذا يمسك بخطام بهيمة يسوقها إلى حقله، وهذه سيدة تحمل وليدها لعلها جاءت به لتتبرك بالمقام، وهكذا كان الميدان دنيا تعج بالحياة طوال النهار.

نشأت فى هذا الميدان، وتركت نفسى له وللناس، فيه أرتشف منهم طعم الحياة التى كنت أراها حياة كد وتعب، رأيتها فى عيون الفلاحين الذين كانت تأكلهم الأرض قبل أن تخرج لهم حد الكفاف الذى لايكاد يكفيهم هم أولادهم.. تعلمت فى هذا الميدان أن السعى الذى كنت أعاينه فى وجه بائعة الخضار التى كان ينطلق صوتها من أجل أن يكون ابنها طبيبًا أو مهندسًا أو مدرسًا وقد كان، وفى الإصرار على الحياة الكريمة رغم عضة الفقر التى كانت فى عين بائعة الترمس التى تعود من بيعها بحد الكفاف أو أقل وهى راضية، فعزاؤها فى أمل تنتظره فى ولد لها أو بنت ترجو أن يكون لهما شأن فى حياة ليست كحياتها.

ويأتى الليل يخيم على الميدان بل على البلدة كلها بخيمة ظلامه، فى بلد لم يكن نور الكهرباء قد حل بها أو زارها، ولكن نور القمر فى الليالى التى يبزغ فيها يحول الميدان وكأنه شاشة من بياض يظهر فيها أبطال كثر فى فيلم المساء، فهذا بيتنا مفتوح بجانب الميدان يجلس فى مقدمته أبى رافعًا صوت الراديو بقرآن الساعة الثامنة فى البرنامج العام مع رفعت أو مصطفى إسماعيل أو عبد الباسط، وبعده تأتى نشرة الثامنة والنصف، ويأتينا صوت الراديو ضعيفًا من بعيد ونحن تحت شجرة الجميز لكى نقضى ليلنا ونلعب ألعابنا فيه.

ومن الألعاب التى لا أستطيع أن ألعبها كانت لعبة «صَلّح» التى يقف فيها أحدهم معطيًا ظهره للآخرين واضعًا يده اليمنى تحت إبطه الأيسر ثم يفرد كفه ويضع كف يده اليسرى على وجهه حتى لا يرى من يضرب، ثم يضربه أحد الواقفين خلفه على يده اليمنى، ثم ينظر إليهم ليختار من ضربه، فإذا أصاب الاختيار حل محله الضارب وإذا

أخطأ ظل لتبدأ ضربة أخرى، وهكذا.. وكنت أقف متفرجًا فى الوقت الذى يحاول من يقف أمامهم أن يحصل منى على إشارة أو تلميح بمن ضرب، وكان وقت الضرب تنطلق الصيحات على حسب قوة وضعف هذه الضربة، وفى النهاية كانت «صَلَّح» لونًا من ألوان الترفيه الرقيق. أما الألعاب التى كنت أحب أن ألعبها وكنت أنا وباقى الأطفال نتفق على طريقة لاشتراكى فى لعبها معهم هى «الاستغماية» وفيها يضع أحدنا وجهه للحائط حتى يختبئ كل من الآخرين فى مكانه، وبعد فترة ينطلق ليبحث عنهم فى أطراف الميدان ويحاول أن يمسك بواحد منهم فجأة، ومن يمسك به يأتى عليه الدور لكى يعطى وجهه للحائط وتعاد اللعبة مرة أخرى، وكنت أجرى وراء من أريد أن أمسكه حتى إذا وصلت إليه أضربه برجلى وبهذا أكون قد أمسكته... ولعبة أخرى هى السباق، فكنا نجرى من أول الميدان إلى آخره، وهذه اللعبة كنت من فرسانها حيث كان جسمى خفيفًا وكنت أصل إلى النهاية بسرعة. هذه الألعاب كانت فى الليالى المقمرة أما فى الليالى الأخرى تلك التى كانت تبدو فيها النجوم وكأنها لؤلؤ منثور فى صفحة سماء كون الله العظيم ففيها يجلس فى الميدان مجموعات من الأطفال، منهم من يحكى الحكايات والحواديت ومنهم من يتحدث فيما يجب أن يقضى غدًا فى الغيطان والحقول ومنهم من يفض خصومة بين فئتين من إخوانه وهؤلاء يأخذون مكانًا بعيدًا عن جلبة الأطفال والشباب.. كان هذا الميدان فى تكوينى النفسى فى بداية الحياة مثالًا على الحركة والعمل وعلى السعى وراء لقمة العيش لكل الفئات التى رأيتها وعايشتها، وكان ملعبًا ومرتعًا لأحداث ومواقف طفولتى الأولى إذ كان أول ما رأيت عندما خرجت إلى دنيا الناس فى قريتى الصغيرة.

الجرن والنورج والساقية

كانت توجد منطقة واسعة من الأرض الفضاء فى الميادين الكبيرة فى القرية يُسمى كل منها جرن، يضع فيها الفلاحون زراعاتهم، فكانوا يضعون القمح أو الشعير أو الفول بعد الحصاد. وترى الخير يعم فى كل هذه الميادين، لأنه وقت حصاد ما تعبوا فيه عدة أشهر، وكانت هذه المحاصيل بأعوادها وما فيها من حب تُلقى فى الجرن بطريقة دائرية على امتداد الميدان أو الجرن. ويأتى «النورج» وهى آلة من الآلات الزراعية التى كانت بمثابة أريكة أو كنبة عريضة من الخشب على كل جانب من جانبيها يد خشبية كبيرة يمسك بهما الجالس على النورج، وأسفلها عجلات حديدية حادة، ويشدها حمار أو بهيمة، ويجلس عليها الفلاح فتبدأ العجلات فى تقطيع عيدان القمح أو الشعير أو الفول حتى تصبح تبنًا تأكله الحيوانات، ويأخذ الفلاح حبات القمح أو الشعير أو الفول بعد أن يرفع التبن. هذه الآلة كنا نركبها ونجلس عليها بعد أن تؤدى عملها، وكنت ترى الفلاح فى هذا الوقت فرحًا بمحصوله الذى يعيش عليه هو وأولاده لأنه وقتها لم يكن يبيع القمح وإنما كان خزين بيته من الخبز، فكان لكل بيت من البيوت صومعة يوضع فيها قمح العام مع مادة لا تسمح بأن يصل إليه السوس والعفن، وكان القمح إذا وجِد يرفع الجوع حتى ولو لم يكن معه طعام آخر..

وكان هناك جرن القطن الواسع الكبير.. وقت أن كانت مصر قبلة القطن طويل التيلة فى العالم كله، وكانت تُجمع فيه أكياس القطن التى لاعد لكثرتها، على كل كيس اسم صاحب القطن ورقم الكيس والموازين والموظف الموكل إليه بالوزن. ولم يكن هذا الميدان أو الجرن بعيدًا عن

بيتنا، فكنا نذهب إليه لنرى هذه الصور التى تتكرر كل عام فى هذا الوقت، ونرى وجوه الفلاحين المتطلعة للأموال التى يحصلون عليها بعد زرعة القطن الذى عاشوا معه زراعةً وريًا وجمعًا، هذا الجمع الذى كان الواحد منهم يلبس له جلبابًا واسعًا ثم يربطه عند خصره ويضع القطن الذى يجمعه فيه حتى يمتلأ فيفرغه فى المكان المخصص ثم يرجع ليعيد الكرة، هكذا طوال اليوم فى حر الظهيرة الملتهب، لذا فهو يتطلع ليأخذ ثمن تعبه فى محصول القطن الأبيض فى هذا الجرن جرن القطن، وترى أثر ذلك فى حياته وفى أولاده.

وعلى حواف الحقول والغيطان ترى الساقية التى كانت فى نهايات عمر خدمتها للفلاح، والتى كان الفلاح يسخر فيها البهيمة أو الحمار بأن يضع على رقبته خشبة ثقيلة تسمى النير تنتهى إلى عمود الساقية، ويوضع على عينى البهيمة (الجاموسة أو البقرة) غطاءً سميكًا يسمونه «الغُما»، ويضرب الفلاح البهيمة فتلف فى شكل دائرى لترفع المياه إلى قناة صغيرة، ثم تجرى هذه المياه حيث يريد الفلاح. وتجد الفلاح يقف بجانب البهيمة كلما وقفت ينادى عليها بأن تواصل بقوله بصوت أجش «حاا» فتستمر فى الدوران حتى يروى زرعه.

هذه المشاهد رأيتها وعشتها من بعيد فى سنوات عمرى الأولى، حيث لم يكن أبى فلاحًا، ولكن هكذا كان المجتمع، وهذه صوره التى طُبعت فى ذهنى وطُبعت معها صور للأرض وللناس وللزرع الأخضر والآلات الزراعية البدائية بالقياس لما ظهر بعد ذلك، فكان لذلك إدراك أن لكل زمن حاجاته ونظمه وآلاته، وأن الزمن والناس والأيام فى تطور مستمر، وإن كان هذا التطور لم يقابله تطور وتجويد فى الأخلاق والمبادئ بل قد يكون العكس هو الصحيح، وسنرى مع الأيام والسنين.

الحاج سيد أبو خليل والحاج على عبد الدايم

الشخصيات الكبيرة هى التى تنقل المجتمعات وتُحدث الفرق وتبنى أبنية يأوى إليها البشر لكى يعيشوا حياة الكرامة الإنسانية، والتعليم والتربية هما الأساس لهذه الكرامة الإنسانية، وهاتان الشخصيتان هما اللتان وضعتا اللبنة الأولى للتربية والتعليم فى قريتى، وما رأيت أحدًا منذ وعى عقلى يتحدث عنهما إلا بالتبجيل والاحترام والتوقير، ولهما فى نفوس الأجيال التى عاشت معهما هذه المشاعر التى نقلوها إلينا فعشقنا سيرتهما وكانت سبيلًا لكل من أراد أن ينجح فى الحياة، فقد حفظا القرآن فى بداية العمر أى فى أوائل القرن الماضى.. وللقرآن تأثيره العميق عندما يحفظه المرء وهو مؤمن به عامل بأحكامه يحفظه فى نفسه ومع الناس. ثم تعلم الحاجان حتى حصلا على شهادة الكفاءة ثم دار المعلمين، ليأتيا إلى القرية التى كانت تخطو خطواتها الأولى بعد أن كانت عزبة صغيرة، وأنشأ أهل هذه القرية المدرسة على طرفها البحرى ليتولى إدارتها هذان الشابان اللذان حفظا القرآن ولهما الحب فى القلوب خاصة وأن سيرتهما فى الناس كانت طيبة. فواحد منهم وهو الحاج على عبد الدايم كان صوفيًا يهوى الذكر واجتماع الناس فى بيته على ذكر الله وقراءة القرآن ولا يخلو البيت من الذكر الجماعى بترديد أذكار الصوفية أومدح النبى ﷺ بالبردة البوصيرية أو بنهجها الشوقى، ومازال هذا الشكل من الذكر فى هذه الأسرة إلى الآن. وأما الآخر الحاج سيد أبو خليل فكان كما وصفه تلاميذه جادًا جدًّا، وكان يهتم اهتمامًا كبيرًا بالتربية والأخلاق، وكان يقدس التعليم ويعتبره عبادة لله سبحانه وتعالى، ولأنه كان مسموع الكلمة عند كل الناس فقد أنتج هو وزميل الدرب إنتاجًا وفيرًا:

أولًا: لقد نقلًا التعليم فى البلد إلى أولوية فى اهتمامات مجتمع لم يعتد على ذلك.

ثانيًا: رسما صورة رائقة جميلة طاهرة صافية محترمة للمعلم.

ثالثًا: ساهما فى إنشاء جيل يحمل الراية بعدهما، هذا الجيل الذى بدأ فى أواخر الخمسينيات من المعلمين الذين حفظوا القرآن الكريم فى الكتاتيب التى زرعت النور فى قلوب الصغار، فإذا بهذا النور يخرج إلى عالم الناس فى قريتى بل فى مصر كلها التى كانت تنهج هذا النهج فى قراها ومدنها، هؤلاء التلاميذ كانوا من دَرَّسوا لنا فأخذنا منهم وارتشفنا الأخلاق والتربية وتقديس التعليم، هؤلاء الذين خَطوت معهم فى بداية عمرى أولى خُطواتى فى مشوار صعب، وكان لهم معى مواقف شتى، فمنهم من انتظر وترقب ماذا يفعل هذا الطفل، ومنهم من آمن أن هذا الطائر سيطير رغم فقد الجناحين، ومنهم من كان ينظر نظرات ريبة فى النجاح لكنهم جميعًا قد وجهوا لطريقى أعمدة النور التى فى قلوبهم من قرآن حفظوه يومًا ما.

ستى آمنة وحسن الطويل

ما تمنيت فى حياتى أن ألتقى بشخصية ممن رحلوا من عائلتى مثل هذه الشخصية، ستى آمنة جدتى لأبى، هذه السيدة التى اجتمعت فيها صفات قلما تجدها فى سيدة. فصورتها توحى إليك بهيبة تطل من الوجه، وبعينين ترسلان شعورًا بالود، وبياض وجهها وبسمتها الخفيفة يدعوان إلى التفاؤل، وغطاء رأسها الأسود يدلك على التزام فرضه دين وعرف وبيت من البيوت الكبيرة فى هذا الزمان، فهى ابنة رجل من رجالات

قومه وابنة عائلة «أبو مريم» وهى أكبر عائلة فى القرية، تزوجت من جدى لأبى التاجر الذى يعمل فى تجارة المواشى بيعًا وشراءً وارتحل إلى القاهرة بعد أن تزوجها وسكن منطقة إمبابة، ولأنه كان طويل القامة عريض الصدر ـ كما وصفه أبى ـ أُطلق عليه لقب «حسن الطويل»، وكان ذا شهرة واسعة فى المكان، وكان من ينزل عليه من أقاربه فى إمبابة يرجع ليحكى كيف كان الكرم الذى لقيه من حسن الطويل وزوجته السيدة آمنة، حتى أن أحدهم ـ كما تحكى هذه الطرفة ـ لما أكل اللحم وشبع وعز عليه أن يترك ما بقى من اللحم وهو كثير فوضعه فى منديل ولف المنديل ودسه فى جيبه، حتى أصبحت طرفة مما يقال فى كرم حسن الطويل وآمنة مع من كان يأتى لزيارتهما وخاصة من عائلة حسن التى كان معظمها من الفقراء.

وكانت آمنة ضمن عدة أخوات كلهن كن ميسورات الحال إلا واحدة وهى خضرة، التى ستشهد بعد ذلك لحظة ميلادى الصادمة فى الليلة الحاسمة. وظلت آمنة كلما رزقت بطفل إما يموت فى بطنها قبل أن يتخلق وإما بعد أن يشم ريح الحياة، يتركها ويرحل ويرحل معه الأمل فى ولد يحمل اسم أبيه. ولما ولد أبى سماه والده عبد السلام واختارت له أمه آمنة اسمًا يبعد عنه عين الحاسد فقالت «عباطة»، وكان والدى دائمًا ما يتندر بهذا الاسم عندما كان يذكر هذه الأيام، فكان لا يستطيع أحد أن يسميه أمامها باسمه الحقيقى بل باسمه الذى اختارته له لكى تحفظه من الحاسدين عل الله يكتب له الحياة بعد تجاربها القاسية مع أولاد رحلوا قبل أن تدب أقدامهم على أديم الأرض.

وشاء الله أن يكتب الحياة لولدها ووالدى الذى نشأ فى نعيم والد

ثرى وحياة مرفهة وأم تلف عليه مشاعرها التى انتظرته طويلًا. وهكذا الحياة لا تدوم على حال ولا يستقر لها بال؛ فجأة سقط حسن الطويل ومات دون أن يشكو مرضًا، فكانت صدمة العمر لآمنة التى أصبحت الأب والأم لولدها الذى ترك فترة الصبا وفى أولى خطوات الشباب، فجمعت ماكان من ثروة زوجها الراحل وجاءت لتعيش فى القرية التى رحلت عنها مع زوجها، وها هى تعود إليها مرة أخرى ولكن وهى مسئولة عن شاب فى مقتبل العمر. ولما جاءت وكان لها حقها فى بيت أبيها فتركته للوارثين، وآثرت أن تعيش فى بيت مستقل مع ولدها وبهال زوجها الراحل.

واستعانت ستى آمنة بابن أخيها أبو زيد، هذا الشاب الذى يعمل فى كل شىء، فكان يعمل مقاولًا ومزارعًا وتاجرًا، وقد عارك الحياة فعركها وعركته، لذلك اعتمدت عليه فاشترى لها بيتًا كان لرجل من الصالحين فى البلدة وهو الحاج قاسم الفلاح، هذا البيت الذى وصفنا موقعه عندما تحدثنا عن ساحة شجرة الجميز، وكان يبدأ بباب كبير من الخشب كان يسمى بوابة، يليه صالة صغيرة تسمى الدهليز، على يمينها غرفة كبيرة وأمام الداخل من الباب غرفة أخرى كبيرة أيضًا، وعلى شمال هذه الغرفة مكان واسع فيه الفرن الذى يُخبز فيه الخبز، وهذا الفرن كان لابد من وجوده فى كل بيت، وعلى اليمين على بعد خطوتين من الفرن تأخذك رجلاك إلى السلم الأرضى المبنى من الطوب اللبن كبقية البيت تصعد عليه، وبعد بضعة درجات تجد غرفة صغيرة على يمينك كانت تستخدم كمخزن لأهل البيت يضعون فيه حاجاتهم التى لها موعد فى التنفيذ والقضاء لم يحل بعد، وبعض الناس كانوا يستعملونها فى تخزين

اللبن ومنتجاته مما يفيض به الله عليهم من بين فرث ودم. ثم يسلمك السلم للسطح الذى ترى منه القرية من علٍ، وترى الأسطح كلها بنفس الشكل: الحطب الذى جفت عيدانه وبعض من الروث الذى جف ليكون وقودًا للفرن الذى يصنع روح الحياة وهو الخبز، وعلى كل سطح ترى صومعة عبارة عن بناية أسطوانية صغيرة كوعاء ملفوف ومجوف يوضع فيه القمح ومعه مادة تمنع التسوس ووصول الماء إليه، ولا ترى فرقًا فى جميع البيوت على امتداد البصر إلا بيوت قليلة بُنيت بالطوب الأحمر وبشكل مختلف، وكان أعلى السطح عندنا غرفة صغيرة كانت تسمى «المقعد».

هكذا كان البيت الذى اشترته آمنة لتعيش فيه هى وابنها الذى كان مسكنًا لهما، والذى أصبح بعد ذلك بيتًا يجمع أمًا وأبًا وثمانية أولاد وحياة فيها كل ما فى حياة البشر من مواقف وأحداث كنت فيها فاعلًا ومفعولًا به، كنت فيها شاهدًا ومشهودًا كنت فيها أخًا وابنًا وصديقًا وستسرد الحكايات كل هذه الأحوال.

أنهى «عبد السلام» الابتدائية للتو، وبدأت المناقشات هل يكمل دراسته؟ أم هناك طريق آخر؟ وظلت آمنة تبحث مع وحيدها وهى ترقب العيون وهى تشكك فى قدرة هذا الولد الذى ولد بملعقة من ذهب فى فمه أن يعرك الحياة وأن ينجح فى اتخاذ قرار مع أمه التى لا تريد من الدنيا إلا أن يعيش سعيدًا، وفجأة أخذ عبد السلام القرار. سأذهب إلى الجيش، وأصر على رأيه فكان ما أراد، هنا تحولت الأم إلى داعم له فى خطوة حياته ووقفت معه وقالت بلسان الحال والمقال: «ستنجح وستثبت للجميع أنك إنسان مسئول وسأفخر بك ولا تخف

من الإقدام»، ولعل هذا الموقف هو نفسه ما حدث معى فى تجربة الحياة من عبد السلام أبى لأنه وعى الدرس عندما نجح وبنفس ألفاظ المقال ولسان الحال، وكأن الزمن كان يعيد نفسه لكن بتغير فى الزمان والمكان والمواقف والأشخاص. وذهب عبد السلام ليقف فى البرد القارس فى الشتاء والحر الشديد فى الصيف وحبات الرمل تلسع رجليه العاريتين حيث كانوا يلبسون شورتًا قصيرًا إلى الركبة، ونجح وأثبت للجميع أنه خرج عن الطوق ـ طوق أمه ـ بل أصبح مسئولًا عنها، وما رأيت أبى يتحدث عن أحد بهذا التكريم والتبجيل والاحترام والوفاء كما تحدث عن أمه، بل كانت عيناه كلما ذكرها تذرفان بالدموع ووجهه يكسوه الخشوع لهذه السيدة المثال.

وكان زواج عبد السلام يومًا من أيام حصاد رحلة آمنة الطويلة، حيث تركت له البيت راضية مرضية لكى يعيش حياته مع زوجته هانئًا وفى هنائه هناؤها وسعادتها، وصعدت إلى غرفة «المقعد» هى وصديقتها أسمهان التى كانت تلازمها ولا تتركها حتى إنها كانت تنام معها.. وكانت أسمهان التى توفيت فى سنوات عمرى الأولى شديدة الطيبة والعطف، وأذكر من كلام أمى ـ رحمها الله ـ أن ستى آمنة كانت الأم الحانية التى أخذتها فى صدرها وصارت لها بنتًا. وتحكى أمى كيف كانت هذه السيدة قوية وحانية فى نفس الوقت، كيف تعلمت منها الحسم فى الأمور وكيف تعلمت منها الاهتمام بالطفل ورعايته وكانت المرجع لها حين تستحيل عليها الأشياء أو يخرج زوجها عن حنانه المعهود فتلجأ لمن يعيد لها قلبه.. وولد فى حياتها أخواى حسن عام 1962 الذى سماه أبى على اسم أبيه حتى يسعد أمه آمنة، وياسر عام 1963، واستعدت بطن الأم لتحمل نطفة هذا المولود القادم.

وفى ليلة من ليالى ربيع عام 1964 اشتكت أم حسن من التعب الذى تعانيه فى القيام بولديها على الرغم من مساعدة جدتهما لها، فقالت لها آمنة وكأنها كانت تنعى نفسها قائلة: «إذا كان كل ما لديك ولدان وأنا أساعدك فماذا تفعلين حينما يكونون ثلاثة أولاد وتكونين وحدك»، فأمسكت الأم برأسها وقبلتها وبكت على صدرها وراحت آمنة ترسل يدها على ظهر أمى كأنها تواسى قلبها لما سيأتى به القدر، وهل يستطيع أحد أن يوقف يد القدر، أن تعمل عملها..

بعد هذه الكلمات بعدة أيام، وقبل أن ترى عينى هذا المولود ـ الذى أشرف على النزول ـ نور الحياة، وقبل أن ترى عين قلبى هذا الحب النادر الواعى من هذه السيدة العظيمة ستى آمنة رحلت هذه الروح الجميلة، رحلت بعقلها الواعى وفطرتها السليمة النقية ووجهها الرائق وبسمتها الحانية، رحلت هذه السيدة جدتى التى ما تمنيت أن أرى إنسانًا من أهل قرابتى أكثر منها، هذه الطيبة المؤمنة الراكعة الساجدة الواعية التى تركت أثرًا عند كل من عرفها وعايشها، ولعل والدى فيه من هذه السيدة كل هذه الصفات التى اتصفت بها، لكن الفرق بينهما أن هذه السيدة كان لها ولد واحد أما ابنها فكان عنده جيش من البشر، وأن الزمان غير الزمان، وأن هذه السيدة لم يكن عندها مشكلة رضا كما عند ابنها عبد السلام.

كانت صورة ستى آمنة معلقة على الحائط، ومنذ وعيت ونشأت كنت أعرف أن هذه السيدة جدتى أم أبى، ولعل ما عرفته عنها وعن قوتها ودينها وأخلاقها وحنانها مع أمى وأبى ومع الناس جعلنى منذ صغرى أقدر هذه الصفات بل وأنظر إلى كل الكبار هذه النظرة، خاصة وأن العمر ستزخر أيامه بمثل هؤلاء، ولعل هذه السيرة لهذه السيدة جعلتنى أيضًا أحس أن لى أهلًا ذو كرم وذو أدب جم وذو دين قويم.

صول فى سواحل السويس

كان «محمد مرسى» جدى لأمى من العائلة التى منها جدتى آمنة، عائلة «أبو مريم»، عمل فى حرس السواحل الذى كان يسمى حرس الحدود والمصايد والجمارك فى مدينة السويس، وكان عملًا شاقًا وخطيرًا يتطلب نظافة اليد والحيطة والحذر، ويتطلب أيضًا أن يكون صاحبه فى أشد حالات الانتباه واليقظة.

وأخذ محمد مرسى يترقى من شاويش إلى أن وصل إلى رتبة صول وتزوج من «بهية»، وهو اسم على مسمى، بهية الشكل وبهية الخَلق والخُلق، وهذه شهادة لكل من رآها وعاصرها وعايشها، هى من نفس عائلته، حملت معه الحمل الثقيل، كانت تنتظره كل أسبوع وقد أدت ما عليها من قيام بالبيت والزرع والبهائم القليلة التى كانت مصدرًا لشىء من سعة الرزق.

ورزق الله محمد مرسى وبهية بمرسى، الولد الأول والوحيد بين خمس بنات كانت أمى أولهم بعد مرسى البكرى، وتلتها وفاء وفاطمة وباتعة وآخرهم نبيلة. وقد ولدت بهية عام 1925، وشاء القدر أن تحدث المأساة اختبارًا لهذا الرجل ونكبة للصغار بأن ترحل بهية عام 1955 وهى فى سن الثلاثين من عمرها وتترك الرجل مع ستة أحمال بشرية ثقيلة وهو الذى يعمل فى بلد غير بلده، وليس هناك مكان لهم فى هذه البلاد البعيدة. ورحلت بهية وكان سن خالى البِكْرِى أربعة عشر عامًا وسن أمى وقتها ثلاثة عشر عامًا والثلاثة الآخرون تتراوح أعمارهم من أثنى عشر عامًا حتى ثلاث سنوات، فلم يجد جدى إلا أخت بهية التى غادرها قطار الزواج الحاجة مبروكة التى يئست من الزواج فخرجت للحج وهى

فى سنها الصغيرة، وكانت قوية الشكيمة ذات شخصية مهابة لا ترضى بسهولة ولاتخلو شخصيتها من بعض ما يخاف المرء منه، فتزوجها علها تكون عونًا وشيئًا من المواساة للملاك الراحل، وأخذها معه إلى بلاد غير بلادهم لم يألفوها، وظلوا هناك خمس سنوات ثم أنهى خدمته وجاء ليعمل تاجرًا حتى رحل فى أوائل الستين من عمره.

توفى جدى هذا وأنا فى العاشرة من عمرى، لذا فصورته بوجهه المستبشر المبتسم مرسومة فى ذهنى بشاربه الكث وسماره النيلى الذى يشير إلى أرض طيبة أخرجته وأنبتته ورعته، ولكن لا أنسى وجهه عندما يكسوه غلالة الحزن التى تبدل وجهه حزنًا وألمًا وغضبًا يظهر فى نتوءات وجهه فتستحيل مكفهرة ملتوية متجعدة، وإذا عيناه شاخصتان إلى أمى ينتظر منها جوابًا عما يلاقيه من أقرب الناس إليه فلا تجد أمى إلا كلمات رقيقة تواسيه بها.

وأذكر درسًا لا أنساه له ـ رحمه الله ـ حيث كان فى حائط من حوائط غرفة لنا دولاب بعمق نصف الحائط وعليه ضلفتان، وكان هذا إبداعًا للتحايل على المسكن الضيق بفتح فراغات فى الحائط لتكون مكانًا يستخدمه أهل البيت، ودخل أحد الأولاد كنا نعرفه وفتح هذا الدولاب وسرق منه مبلغًا كبيرًا فى وقته، فلم تستطع أمى ـ بعد أن تأكدنا أنه السارق ـ أن تواجهه، ودخل جدى فى هذا الوقت فأخذ يضرب كفيه وأقسم على أمى أن تأتى بالولد وقال لابد أن يعاقب لأنه سارق، وجاء الولد وظل جدى وراءه على الرغم من أن هذا الولد أقام مسرحًا للتمثيل حتى يخرج من ورطة السرقة، إلا أنه هدده بأن هناك شهودًا على أنه سرق هذه القروش، فخارت قوى الولد واعترف. وهنا

كان الدرس الذى تعلمناه من هذا الرجل، عندما قال لنا جميعًا: لا تسمح لنفسك أن تأخذ ما ليس حقك حتى لا تقف موقف هذا الولد المهين، ولا تسمح أن تهين نفسك بالحرام أبدًا وأن ما تأخذه من حقوق الناس يكون وبالًا عليك.

كان جدى صديقا لنا أنا وإخوتى جميعًا، وكانت أجمل لحظاته تلك التى يلعب فيها معنا، إضافة إلى معاملتى الخاصة عندما كانت أمى تشكو له منى فيأخذنى بين ذراعيه ويقول لها: «هو أنتِ عندك زى رضا». وفى مرة لا أنساها طلبت منه طلبًا غريبًا أمام أمى؛ قلت له: يا سيد ـ وكان هذا نداءنا له ـ «أريد أن ألبس الساعة». فنظر إلىَّ ووجهه يعلوه العجب، ولما سمعت أمى كلامى اعتراها ما اعترى وجه جدى، ولكنه قال لى: «كيف يا رضا»، فمددت له يدى التى لا يزيد طولها على سنتيمترات قليلة وقلت: ساعتك بأبزين ويمكن أن تعلقها على يدى كما تعلقها على يدك، فعلا صوت أمى، فهدأ روعها، ثم فتح ساعته التى كان الأستيك الخاص بها من القماش ووضعها على يدى ولفها عليها، ولما لم يجد ثقبًا يضع فيه سن الأبزين ظل يضغط على السن حتى اخترق القماش، ولبست الساعة وحقق حلمى الصغير فى أن ألبس ساعة ولو للحظات كما يفعل بقية الناس، وكأنه كان يمهد لمن يأتى بعده أن اسمعوا لهذا الولد لعل أحلامه أن تتحقق يومًا..

وفى ليلة من ليالى الشتاء ذهب وعى جدى وراح فى غيبوبة ظلَّت معه حتى رحل، هذا الرجل الذى ترك فى حياتى ذكريات لا تنسى؛ من نظرة للأمل لا أنساها، هذه النظرة التى كنت أحسها عندما لا يفرق فى المعاملة بينى وبين أخوى حسن وياسر اللذين يكبرانى، ولا أنسى ضمته لجسدى

النحيل بين ذراعيه حين يلقانى، ولا نظرته المؤملة عندما دخلت المدرسة وقوله لأمى يطمئنها:

«والله يابنتى هيكون حاجة كبيرة».. هذا وجه رجل لا يُنسى بأثر الزمن ولا يُمحى من ذاكرة الأيام عندى... رحمه الله.

وداد وأخواتها فى بلاد غريبة

«حرية» كان اسم أمى ـ رحمها الله ـ الذى اختاره جدى لها، ولا أعرف لماذا سميت بهذا الاسم على الرغم من أنه لم يكن مما يسميه الناس كثيرًا، ولم أجد سببًا لذلك إلا وطنية هذا الرجل الذى كان يعبر بهذه التسمية لابنته عن شعور عام يسرى فى دماء كل المصريين بالحرية فى هذا الوقت، خاصة وأن ميلاد أمى كان عام 1943، حيث كان كل المصريين فى هذا الوقت يتوقون للحرية قبل ثورة يوليو بما يقارب عشر سنين. ولعل ذلك الموقف يمثل دلالة من فئة من فئات المجتمع المصرى التى لم تعمل بالسياسة وحياتهم ليس فيها نهم الغنى والترف، ولكن مصر كانت تعيش داخلهم، لعل الاسم التى اختاره جدى كان يشير إلى هذه المعانى.

ولكن المجتمع الذى عاشت فيه هذه البنت ـ التى جاء ترتيبها الثانية ضمن ستة من الأبناء؛ ولد واحد وخمس بنات ـ سماها وداد، وكانت هناك بالفعل، شحنة من الود تنطلق فى شخصية هذه البنت الصغيرة وهذه الشابة الجميلة وهذه الزوجة المسئولة وهذه الأم الحانية فكانت اسمًا على مسمى فى جميع مراحل حياتها. عاشت أمى مع أمها ثلاثة عشر عامًا، وكانت بشهادة كل من عاصروا أمها تشبهها جمالًا فى الشكل وكمالًا فى الأدب وتمامًا فى الخلق.

ولما رحلت الأم وجاءت الخالة وحكم الزمن بالرحيل إلى بلاد بعيدة وإلى أناس لا يعرفونهم، كانت وداد هى التى حملت الحمل الثقيل.. كانت أمى تحكى هذه الصورة وقد اعتراها الآسى والحزن؛ لقد كانت تحمل «نبيلة» آخر أخواتها التى كانت فى سنواتها الأولى وتمسك «بباتعة» أختها قبل الأخيرة التى كانت تمشى ببطء وعلى رأسها ملابس العائلة كلها وتساعدها أختها «وفاء» التى تصغرها ببضع سنين والتى حملت معها شيئًا من هذا الحمل، وتذهب إلى مكان معين لغسيل هذه الملابس وتأخذ دورها مع سيدات كبريات ثم لما يأتى دورها تترك أختيها على الباب وتدخل لتبدأ رحلة الغسيل الشاقة، وتعود بعد كل هذا التعب لكى تنظف الغرفة الوحيدة الواسعة التى استلمها والدها من الحكومة وكانت تسمى مساكن الحكومة.

وظلت أمى على هذا الحال سنوات طويلة، لذا كان كل واحدة من خالاتى يعتبرنها الأم وخاصة الخالتان الأخيرتان. وبعد ما كبر الجميع وأصبح لكل منهن بيت وأولاد كانت هى الموئل الذى يستقبل الشكاوى من الجميع، فيحس من يأتيها منهم أنه قد أفرغ ما عنده من همّ فيخرج وقد استراحت نفسه وهدأ باله. وكنت أرى ذلك بنفسى وكنا نعجب منها عندما لا تواجه أحدًا منهم بما يكون من خطأ وقع فيه تجاه الآخر، ولكن كان لها معهم طريقة فى الكلام الذى يجمع ولا يفرق، يلم الشعث ويوحد القلوب ويزرع الحب ويقتلع الحقد والكره، لذا كانت تحل كل مشاكلهم تحلها معهم بأن تهدئ الثورات وتزرع فى النفوس بكلماتها ثمار الصلح بينهم، وكثيرًا ما يجمعهم بيتها، فكأن همًا لم يكن وكأن حزنًا لم يَحل وكأن العُقَد قد حلتها حروف الإخلاص وكلمات الود من صاحبة الود.. وداد.

كانت الفترة التى تلت وفاة أمها حتى تزوجت هى محنتها الكبرى، وكانت حوالى أربع سنوات طوال، حيث كانت مسئولة عن كل شىء حتى تزوجت، ولعلها كانت تدريبًا عمليًا لها بعد ذلك، حيث ستحمل إلى الدنيا عشر بطون وستعيش فيها حياة ليست كأى حياة، وستلد يومًا مولودًا يقال عنه مالم تكن تتوقع أن تسمعه فى حياتها لعل الأربع سنوات كانت تدريبًا من القدر لما قد سيأتى بعد من قَدَر.

دقوا المزاهر...

منذ رأت عينى الحياة وأشخاصها ومواقفها وأحداثها فى أواخر الستينيات، وأنا أرى المرأة فى الريف ـ وخاصة فى عمر أمى ـ التى لم تنل من التعليم شيئًا، وإن كان الاهتمام بتعليمهن قد زاد فيما تلا مع بداية السبعينيات. فالفصل الذى تَعلمت فيه فى المدرسة الابتدائية كان نصفه تقريبًا من البنات، وكانت الأولى علينا دائمًا هى واحدة منهن، وهذا ملمح مهم فى التطور الاجتماعى للقرية التى نشأت وعشت فيها.

وكانت أمى دائمًا تحثنا على المذاكرة والتحصيل الدراسى، وتحكى لنا كيف خرجت من المدرسة بعد وفاة والدتها قسرًا على الرغم من حبها للمدرسة، ولكن فى هذا الوقت لم تكن البنات ولا أهليهم ولا المجتمع يسمح لهن بمواصلة الدراسة وحتى لو كانت مجتهدة، وإذا حاولت أن تكمل دراستها تجد العوائق كثيرة؛ إما فقر لا يتيح لهن أن يتعلمن لضيق ذات اليد، فما يأتى به رب البيت يكفى بالكاد أن يعيشوا عيش الكفاف فمن أين يأتى بالمال لمن يتعلم؟ خاصة وأنه إذا تقدم فى تعليمه لابد له من مال كثير فى ظل تعليم لم يكن مجانيًا بعد فترة التعليم الإلزامى، وإما

جهل ينظر لتعليم البنت على أنه خطيئة وأن العار يلحق بمن يعلم بناته، وأن البنت ليس لها إلا الزواج وإنجاب الأولاد والقيام عليهم، وأن شخصيتها لابد أن تذوب فى شخصية الزوج.

هذه كانت الصورة لتعليم البنات فى بواكير عمر أمى، لذا خرجت من المدرسة فى أعوامها الأولى وبدأت رحلة معاناة طويلة بعد وفاة أمها مع أخواتها الصغار، ولما قاربت سن السادسة عشرة بدأ الكلام فى خطوبة من أحد الأقارب لجدى، وفى الوقت نفسه كانت آمنة جدتى لأبى قد وضعت عينيها على هذه البنت التى تحمل فى وجهها براءةً وجمالًا وتبدو روحها طيبة وتبدو نفسها طيعة وهى ابنة محمد مرسى ابن عمها، فلما علمت ستى آمنة بمن يحوم حول حمى البيت ليخطب هذه البنت سارعت بمن يفتح الموضوع، وماهى إلا أيام قليلة حتى أُعلن أن عبد السلام ابن حسن الطويل وآمنة قد خطبا وداد بنت محمد مرسى وبهية.

وكانت مراسم الخطوبة أن يذهب أهل العريس إلى بيت والد العروس ويطلب العريس أو والده أو كبير العائلة أمام الحضور ـ وعادةً مايكونون من أهل العروسين والمعارف والأصدقاء من الجانبين ـ يد العروس. وكان مَنْ طلب يد العروس من جدى هو أبو زيد ابن أخ ستى آمنة الذى كان المتحدث الرسمى باسمها فى هذا الوقت. ولما تمت الموافقة، علت الزغاريد فى أنحاء البيت ووزعت أكواب الشربات الأحمر الذى كان هو المشروب المفضل وقتها عند الجميع قبل أن تتطور هذه الأشكال ببذخ يُخرج الفرحة عن طبيعتها ويُخرج المناسبات السعيدة أحيانًا عن كونها مناسبات لجمع أسرتين إلى مناسبات للتفاخر والإسراف والتبذل بينهما، وما يجره ذلك من تأكيد ليس على المبادئ والقيم ولكن على المظاهر الكاذبة والصور المزيفة.

تمت الخطوبة وأصبح والدى ـ رحمه الله ـ فردًا أصيلًا من هذه الأسرة، وأصبح أخًا لمرسى الأخ الأكبر والوحيد لأمى وأخواتها والذى كان سنه تسعة عشر عامًا، وكان أبى يكبره بخمسة أعوام، وأصبح هو الفاكهة لهذا البيت وخاصة الصغيرتين نبيلة وباتعة اللذين شارف عمرهما على ثمانى وتسع سنوات. وكانت أختهما فاطمة التى تكبرهما شخصية مستقلة تعمل مع أبيها وتأتى ببعض البضاعة مما تحتاجه بعض الفلاحات والبنات وتتاجر فيها وتكسب أموالًا تساعد بها أباها وتدخر لنفسها لعل العريس يطرق الباب يومًا، وفاطمة هذه كان القدر يخبئها لمهمة كبيرة فى حياتنا سوف تأتى فى مستقبل الأيام.

ويحكى الجميع عن هذه الفترة كيف كان أبى يهتم بهم جميعًا ويسعى فى قضاء المصالح الخاصة لهم، لكن كان هناك من لا يطيق أن يراه فى هذا البيت، إنها السيدة التى حلت محل أختها بهية جدتى لأمى التى ماتت فى الثلاثين من عمرها، لكن لماذا لا تطيقه؟ هذا السؤال سمعته كثيرًا من أمى بل رأيت بنفسى وأنا صغير وبعد ما كبرت هذه السيدة تحقد على أبى بكلمات تنز بالكره، ورأيت جدى ـ رحمه الله ـ ينهرها بل ضربها ذات مرة بعصا كان يمسك بها عندما ذكرت أبى بما لا يليق، ولا أجد إلى الآن سببًا لهذا الشعور السلبى من هذه السيدة ـ رحمها الله وغفر لها ـ إلا أنها كانت ترى الجميع يلتف بمشاعر الود والامتنان لهذا القادم الجديد إلى هذه الأسرة فملك الحسد قلبها وراحت تغذى نفسها بالحقد عليه دون أن تقف يومًا لتراجع هذه النفس، ومع ذلك لم أر أبى يبادلها هذه المشاعر أبدًا، بل كان دائمًا ما يلقى بحبل المودة لها، بل رأيته بنفسى يسعى بها عند طبيب ليعالجها، وفى الطريق عبرت له عن كرهها له! فهى للأسف أخذت مع نفسها قرارًا بالحقد عليه ولم تحدث نفسها يومًا بالرجوع.

ولأن يد القدر غالبة، فقد تزوج أبى وأمى، وكان الفرح كما الخطوبة، يتجمع فيه الأسرتان والأهل والأقارب من الجهتين، ويلبس العريس ثيابه التى تناسب شخصه، فإذا كان فلاحًا يلبس جلبابًا وشالًا يضعه على كتفيه، وإذا كان أفندى مثل عبد السلام يلبس بدلة وكرافته أول الستينيات. ويبدأ الفرح بليلته السابقة التى كانت تسمى ليلة الحنة، تتجهز فيها العروس بكل ما يلزمها، ويؤتى بالحنة لتوضع فى قبضة يدها وفى أصابعها وتضغط عليها لبعض الوقت. وكذلك العريس، يأتى المزين لكى يحلق شعره ويزين وجهه ويلقط الشعر الزائد فى وجهه لكى يزيده جمالًا، ويتجمع معه أصدقاؤه، وتكون ليلة من ليالى العمر لا تُنسى وتظل محفورة فى ذكرى الأيام.

وفى اليوم التالى، يأتى مأذون القرية، وكان فى هذا الوقت الشيخ «محمد القاضى»، وبدخوله يقف الغناء ويصمت الجميع إلا من همهمات قليلة، وتتوجه جميع الوجوه إلى حيث يجلس المأذون ويجلس على يمينه أبو الزوجة وهو هنا جدى وعلى يساره العريس ويكون فى جيبه منديل ـ عادةً ما يكون أبيض ـ ويسلمه للمأذون، ويضع العريس يمينه فى يمين والد العروس ويضع المأذون المنديل على هذه المصافحة المعلِنة لإنشاء أسرة جديدة بين الاثنين، ويعلن أمام جميع الحضور الإيجاب والقبول ليكون عبد السلام زوجًا لحرية المعروفة بين الناس باسم وداد.

وتنطلق الأغانى والزغاريد، ويذهب عبد السلام إلى أمه ليقبل يدها ويذهب محمد مرسى إلى ابنته وهو يغالب دمعته، فإذا هى ترمى نفسها على صدره فيقبل رأسها فى اللحظة التى أمسكت فيها بيديه لتعبر بالقبلات عن امتنان بنت لأب رحيم.

وتدخل وداد بيتها الجديد على جهاز العروس الذى كان غاية فى البساطة وغاية فى الرضا لهذا الوقت، فهو سرير ودولاب رأيتهما فى بداية عمرى، وفرش كان عبارة عن نوع من السجاد اليدوى يطلق عليه «الحِّمل» كان يوضع على الأرض التى كانت عليها طبقة من الأسمنت المبلط، أى الذى ينعمه ويسويه من يضعه على الأرض. وكان فى البيت الفرن الذى كان يملأ بالحطب حتى يشتعل ثم يوضع فيه العجين بعد أن تهدهده المرأة على قطعة من الخشب تسمى «الطَّرَّاحة» حتى تفرده ثم تلقى به فى عين الفرن أو فى عين المحمة كما كانوا يسمونها، فيخرج الرغيف بشكله المبهر الجميل للآكلين بالهناء والشفاء. وكان بجانب الفرن يوجد حائطان صغيران لا يزيد الواحد منهما على نصف متر يلقى بينهما بالخشب والحطب ثم يوقد فيه النار وكان يسمى «المنقد» أو «الكانون» وهذا كان أحد ما يُعد للعروس لكى تنجز مهامها فى إعداد الطعام خاصة ما يحتاج إلى نار قوية كاللحوم التى كانت نادرة على موائد الناس فى هذا الوقت. ذلك إضافة إلى «وابور الجاز» الذى كان بثلاثة أعمدة ومخزن يوضع فيه الجاز وطربوش تخرج منه النار بعد أن يُضرب الكباس ليدفع الجاز إلى أعلى فتلتقطه النار ويظل كذلك حتى يطهو كل ما تريده من طعام وشراب. هكذا كان جهاز أمى عندما بدأت حياتها فى أول الستينيات.

وفى يوم الصباحية أى اليوم الذى يلى يوم الزواج تأتى النساء للمجاملة فتحمل كل منهن صينية عليها مجموعة من الفطائر المعمولة من السمن البلدى، فتجد العروس أمامها الكثير من هذه الفطائر، فتهدى بها حماتها وجيرانها وأسرتها لتأليف القلوب. وتضع العروس بعضا من الكعك والبسكويت الذى صُنع خصيصًا لهذه المناسبة فى كل صينية حُملت إليها

تعبيرًا عن الشكر وردًا للمجاملة بشكل غاية فى البساطة وبعيدًا عن التكلف.

هكذا بدأت الحياة فى هذا البيت الذى جمع سيدة البيت آمنة التى أخذت صديقتها أسمهان وصعدتا إلى غرفة المقعد لتعيشا فيها، وهى راضية بما قدمته لابنها داعية له أن يوفقه الله فى حياته الجديدة. وها هى مرحلة جديدة من مراحل حياة عبد السلام تبدأ مع زوجته الشابة التى ستحمل معه أعباء حياة سيكون فيها ما فى الحياة من شتى أنواع المواقف التى يعيشها البشر، من فرح وحزن، من ضيق وسعة، مع أولادهم زينة الحياة الدنيا وفتنتها، فماذا يا ترى سيكون مستقبل الأيام فى هذا البيت الجديد؟

حسن وياسر

مرت الأيام الأولى من الزواج وقد امتلأ البيت فرحًا وسعادة بكل المهنئين من العائلتين ومن أصدقاء ومحبى العروسين، والعادة أن المهنئين يهدون العريس والعروس هدية مالية مبلغًا، من المال حسب استطاعة المُهدى ويسمى «النقطة»، وكان فى هذا الوقت بضعة جنيهات. وتساعد هذه النقطة فى سد ما يكون من ديون الفرح والجهاز، وهذا لون من ألوان التكافل الاجتماعى موجود فى القرى عمومًا وبين الأهل والأصدقاء. وكان لأبى مجموعة من الأصدقاء الذين كانوا مثالًا فى الأخوة والصداقة، وكانت أمه تعتبرهم أبناءها، واستمرت صداقتهم له حتى رحل عن الدنيا، وكانوا جميعًا قد حصلوا على مدرسة المعلمين وأصبحوا مدرسين فى مدرسة البلد الابتدائية، وكان لهم فى جميع النفوس احترامًا وتبجيلًا، وكذلك كان المعلم فى هذا الزمان.

وبعد فترة لم تطل، بدأت أعراض الحمل تظهر على العروس التى لم يمر على زواجها شهران تقريبًا، فامتلأ البيتان فرحًا، بيت آمنة وبيت محمد مرسى، فهذا أول مولود سيولد لهما وها هو يتخلق فى بطن أمه، فاحتضنت آمنة زوجة ولدها الوحيد وراحت تغذيها بكل أنواع الغذاء روحيًا ونفسيًا وجسديًا كما تفعل الأمهات الحكيمات للمحافظة على جنينها وهو يخطو خطوات حياته الأولى فى ظلام الرحم، ونزلت من المقعد لتساعدها فى أعمال البيت وهى لا تكاد تصدق نفسها، ها هو ابنها الذى جاء بعد أن حُرمت كثيرًا من أن يعيش لها ولد قد حفظه الله وكبر وتزوج، وها هى ستعيش لحظة أن ترى له مولودًا من صلبه.. وتمر الشهور وتأتى اللحظات الحاسمة حيث يقضى الله بأن تخرج روح من روح وينزل جسد إنسان كامل من بطن أم تصرخ، لكن الصراخ يحمل فرحة لا يحسها إلا قلبها، تترجى لهذا المولود أن ينعم بنور الحياة، وإن كان ضعيفًا إلا أنه آية فى تكوينه الإنسانى وآية فى إبداع الخلق من رب الرحمة الرحمن الرحيم.

ولد المولود الأول على يد الداية التى كانت أختًا لآمنة، ستى «خضرة» ومعها زوجة ابنها «دولت» التى كانت تساعدها فى عملية الولادة، وكانت ستى خضرة ودولت خبيرتين بموضوع الولادة، حيث كانت تكشف على الأم وترى بحساسية يدها إن كانت الرأس ـ أى رأس المولود ـ فى الحوض أى متجهة وجاهزة للنزول، وكانوا يسمونها إذا كانت كذلك «الراس طشة»، أما إذا كانت غير ذلك فإنها تبلغ أهل الأم أن يرسلونها لطبيب. وفى حالتنا كانت «الراس طشة» والأمر جاهز وماهى إلا ساعات قليلة حتى سُمع بكاء الطفل ليعلن الفرحة والسعادة

فى هذا البيت، وتأخذه ستى خضرة وتمسح ما عليه من دم وتسمى الله «بسم الله ما شاء الله». ولأنها تعرف قيمة هذا المولود عند أختها وأنها كانت تنتظر هذه اللحظة فقد سَمَّت الله ووضعته على يد آمنة التى سَمَّت الله، وكانت هذه العادة عند جميع النساء فى حمل الأطفال، فقالت «بسم الله» وحملته وحضنت جسمه الصغير، فهذا ابن وليدها، وفكرت فى جده حسن الطويل الذى كانت تتمنى أن يشهد هذه اللحظة.

ودخل عبد السلام وقد امتلأت الغرفة فرحًا وسعادةً، فقبّل رأس زوجته وربت على كتفيها وهنأها وقبل رأس أمه ورفعت أمه، إليه ولده البكرى الذى نزل توًا من رحم زوجته ليعلن قيام سلسلة نسل عبد السلام. ولأن عبد السلام كان عاشقًا لوالده الذى رحل فى بواكير عمره، ولأنه يعلم أمنية أمه، فقد أعلن أمام الجميع فى هذه الغرفة اسم المولود الأول على اسم جده عله يعيش كما كان جده خلقًا ودينًا وهيبة، اسمه حسن، إذًا هو حسن عبد السلام حسن فى عائلة جديدة برب للعائلة جديد فى رعاية وحفظ أمنة الرشيدة الحكيمة..

ومرت الأيام مع المولود الجديد بتجارب تتعلمها الأم لأول مرة، تساعدها آمنة وتحمل عنها كثيرًا مما تعانى. وبعد حوالى شهرين، بدأت بطن أم حسن تعلن عن تخليق جنين جديد وحسن مازال يرضع من لبن أمه، وزادت الأعباء على الأم التى لم تتم بعد العشرين عامًا، فهى تقوم بواجبات زوجها وبأعمال بيتها وبكونها أمًا لطفل فى فترة المهد، وها هى بطنها تعلو لتعلن عن قرب وافد جديد، وها هو الوافد قد حل، المولود الثانى فى عائلة عبد السلام، وجه أبيض كوجه أبيه وأمه لكن يميل فى الشبه إلى أبيه. وقد أثبتت الأيام أن هذا المولود قد ورث شكلًا وموضوعًا

وأخلاقًا ودينًا من أبيه الذى سماه ياسر بينما كانت أسرة أمه تريد له اسمًا آخر، ولكن أباه أصر على اسم ياسر تيمنا بالصحابى الجليل «ياسر أبو عمار بن ياسر». وها هى الأعباء قد زادت على الأم الشابة ولكن ما أجمل هذه الأعباء رغم التعب عندما تنظر فى وجه حسن أو تداعب أصابع ياسر، فيضىء وجه هذا بضحكة طفولية بريئة تزيل الهم وتُذهب التعب ويضغط ذاك بكفه على كف أمه وكأنه يرد لها شكرًا واجبًا عليه.

موت آمنة

الحياة مع الكبار دروس لا تُنسى على مدى العمر طال أو قصر، والرحيق الخالص الذى نرتشفه من فيض الحكمة التى تجسدها أفعالهم أو تنطق بها ألسنتهم هو ترياق الحياة لمن أراد أن يحيا كريمًا عزيز النفس لا تصدمه نزغات الشر ولا تضربه صدمات المحن ولكن يبقى صامدًا أمام عوادى الليالى والأيام..

كانت ستى آمنة من هؤلاء الكبار، فقد اتصفت بصفات يتصف بها كل عزيز أراد أن يحيا فطرته السليمة وعقله الواعى وقلبه الحى وشعوره المرهف، هذه السيدة التى عاشت طفولتها وبداية الصبا والشباب مُنعمة ثم تزوجت لتصبح فى ظل رجل حافظت عليه وعلى ماله، واختبرها الله بالحرمان من الأولاد الذين كانوا ينزلون من بطنها ضيوفًا لأيام ثم يرحلون وهى صابرة تتشح بالورع وتتوسل بالدعاء، إلى أن شاء القدر أن يكون لها ولد وأن يكبر على عينيها وأن تفسح له مابين القلب والعقل مكانًا فتحبه بقلبها وتربيه بعقلها، حتى شب عن الطوق رجلًا مسئولًا يحمل على يديه مدفعًا فى جيش بلده ويحمل على كتفية مستقبلًا لأولاده

الذين هم على صفحات غيب لم يحن أوانه بعد. وهاهى قد تمت فرحتها واكتملت سعادتها وصفت نفسها وعلت روحها بحسن وياسر حفيديها من حبة عينها عبد السلام، وكأن الله أراد أن يطمئنها قبل أن ترحل على ولدها الوحيد.

وفى ليلة من ليالى الشتاء كانت آمنة فى غرفتها وكان معها حسن الصغير وهى تداعبه، وتدخل وداد عليها تشتكى تعبًا ومعها الابن الثانى ياسر وهى حامل فى جنين يتخلق فى بطنها وتشكو لها كثرة الأعباء، فقالت لها: كيف الحال عندما يكون الأولاد ثلاثة وتكونين وحدك فبكت وداد وارتمت على صدرها وأخذت تدعو لها بطول العمر. ولكن شاء الله بالرحيل وقضى الأمر، وماهى إلا أيام حتى انتقلت آمنة إلى العالم الآخر تاركة تاريخًا لسيدة قوية صلبة علمت ابنها وزوجه، وتركت كذلك صفات للمرأة المثال سواء فى بيت أبيها أو فى بيت زوجها أو فى بيت ابنها الوحيد مع زوجه، لتكون ومضات تضىء طريق السائرين. ولو أن هذا المجتمع كان يتيح للمرأة أن تتعلم وأن تأخذ دورها فى الحياة لكان لهذه السيدة شأن آخر..

كان موت آمنة علامة فارقة لعبد السلام وزوجه؛ هل سينجح فى مقتبل الحياة أم أنه سيسقط فى وهدة الأحداث، وبخاصة أن القدر يخبئ لهما مفاجأة تذهل العقل ويطيش معها الوعى فى هذا المولود القادم بعد حسن وياسر الذين نزل كل منهم فى حلبة الحياة سليم الأعضاء كاملها، وهكذا كل طفل يولد فهل يتصور العقل غير ذلك، وماذا يكون الحال لو حدث ونزل على شكل غير شكل أخويه؟

وماهى إلا أوجاع الأيام الأخيرة التى تسبق النزول إلى ساحات الدنيا والكل ينتظر ماذا يحمل الغد للمولود الجديد؟